السلفية بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية

بقلم

الدكتور مصطفى حلمى

استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الرياض

* * *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد،

فقد سبق أن عرضنا لقواعد المنهج السلفى وشرحنا أبرز معالمه «١» ، وسنعالج فى هذا المقال أسباب العدوى المنتقلة الينا من الغرب فى تقسيمه للتاريخ الى قديم وأوسط وحديث «٢» لنبين الاختلاف الجذرى بين مفهوم (السلفية) بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية ·

ان المصطلح ـ من وجهة نظر المؤرخين الغربيين ـ وعلى رأسهم ارنولد توينى ـ له مدلوله الخاص ، كما سنوضح بعد قليل ، ولا صلة له بمثيله فى دائرة الفكر الاسلامى ، لا من حيث المصطلح أو المضمون ·

فمن حيث المصطلح ، أصبحت « السلفية » علما على أصحاب منهج الاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الاولى ، وكل من تبعهم من الائمة ، كالائمة الاربعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك ، والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن ، وشمل شيوخ الاسلام المافظين على طريقة الاوائل ، مع تباين العصور وتفجر مشكلات وتحديات جديدة أمثال ابن تيمية وابن القيم ومحمد ابن عبد الوهاب وكذلك اصحاب أغلب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقيا وسوريا (وكانت ذو أثر واضح فى تنقية مفاهيم الاسلام ودفعه الى الامام لمواجهة الحضارة والتطور ، ولكشف عن جوهر الثقافة العربية الاسلامية الاصلية القادرة على الحياة فى كل جيل وكل بيئة) «٣» .

---

١ ـ ينظر كتاب (قواعد المنهج السلفى) حيث اجتهدنا فى استقراء هذه القواعد وحددناها بما يلى :

أ ـ اتباع السيف الصالح فى تفسير النصوص وفهمها .
ب ـ رفض تأويلات المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة .

جـ ـ الاستلال بالاساليب والبراهين المستخرجة من الايات القرآنية بدلا من استحداث الطرق المبتدعة بواسطة علماء الكلام والفلاسفة وغيرهم .

ـ من ص ٣٥ الى ص ٤٦ ـ بالكتاب الانف الذكر ، ط دار الانصار بالقاهرة ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦م .

٢ ـ تقسيم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث تم بواسطة أساتذة جامعة كامبردج .

(كولون ولسون سقوط الحضارة ص ١٣٤) .

٣ ـ انور الجندى ـ الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص ٤٩ مطبعة الرسالة بدون تاريخ

ومن حيث المضمون ، تعنى السلفية فى الاسلام التعبير عن منهج المحافظين على مضمونه فى ذروته الشامخة وقمته الحضارية ، كما توجهنا الى النموذج المتحقق فى القرون الاولى المفضلة ، وفيها تحقق الشكل العلمى والتنفيذ الفعلى ، ومنه استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة فى العقيدة خضوعا للتوحيد ، وبيانا لدور الانسان فى هذه الحياة ، وتنفيذا لقواعد الشريعة الالهية بجوانبها المتعددة ، فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة وروابط الاسرة وفضائل الاخلاق ·

والسلفية كمصطلح تعنى أيضا فى مدلولها الخاص ـ الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ـ تلك هى تحقق القدوة فى شخصه ـ صلوات الله عليه ـ اذ حفظت سيرته كاملة محققة بكافة تفاصيلها فنحن نعلم عنه كل شيء وفقا لما نقل الينا فى كتب وعلوم مصطلح الحديث بأدق منهج تاريخى علمى عرفه المؤرخون ·

وهكذا فان السيرة النبوية حية فى كياننا ، ونحن نعيشها كل يوم «١» وهى تمثل القمة للسلفيين · وتطبيق الشريعة الاسلامية ممتد على طول الزمن لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل أن كل جيل من المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النصية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة أحوال الحياة المتغيرة كما هو معروف فى اصول الفقه ·

وقد ظهر المصطلح فى مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها فى تايخنا العقدى والثقافى ، فبدأ لتمييز المثبتين للصافت الالهية بينهم وبين النافين لها · كما ذكر مؤرخ الملل والنحل ـ الشهرستانى ـ وظهر أيضا للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة · كما أصبح علما فى العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب · وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربى ، فان مما يلفت النظر أن ماسينيون ـ المستشرق

١ـ د · حسين مؤنس / الحضارة ص ١٢٥

الفرنسى الشهير ـ وكان تابعا لوزارة الخارجية الفرنسية ـ أخذ يرقب الحركة السلفية بواسطة الامام عبد الحميد بن باديس ، ثم حذر قومه فى فرنسا مما سماه بحركة (السلفيين المتشددين) وما هى فى حقيقتها الا انتفاضة اسلامية تبغى التخلص من نير الاستعمار الغربى ، وقد أعطت هذه الحركة لمفهوم السلفية بعدا جديدا فى عصرنا الحاضر ، اذ اخذت على عاتقها كما فعلتالاجيال السابقة من أصحاب نفس المنهج ـ المحافظة على أصالة الامة الاسلامية فى عقيدتها وشريعتها وأخلاقها حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغزو الاجنبى ·

ولم تكن هذه المرة الاولى لظهور السلفيين بهذا المظهر ، اذ حدث أيام الاشتباك العقلى مع خصوم الاسلام ، وكان الاسلام حينذاك فى الموضع المهاجم المكتسح بفضل استمساك أتباعه به ، ويملكون العناصر الحضارية الاسمى ، اذ عندما نقل الفكر الغربى اليونانى واللاتينى ، أخذوا فى دراسته وتحليله ومناقشته ورد أباطيله ثم قيس ذلك كله بمقاس العلم الاسلامى ومحك النقد الدينى ، فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض «١» وكان الرفض ظاهرا أكثر من غيره فى دوائر علماء السلف ، محافظة على شخصية الامة وأصالتها ·

أما هذه المرة ـ أى فى العصر الحديث ـ فقد جاءنا الغرب فاتحا مستعمرا وحاكما مستعبدا ، ففرض علينا لغته وفلسفته وتشريعاته ونظمه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ·

وكان من أبعد الخطوات أثرا فى حربه ضدنا أن أخذ علماؤه فى تقليب صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسىء الى الاسلام كما عرفه سلفنا الصالح وطبقوه ونفذوه ، فأعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وغيرهم ، الى احياء أو تحبيذ ومدح نحل ومذاهب مختلفة ، اما بأسمائها المعروفة بها كالاسماعيلية أو

---

١ ـ علال الفارسى / دفاع عن الشريعة ص ٨٧
منشورات العصر الحديث ـ بيروت ١٩٧٢ م

الباطنية أو تحت أسماء جديدة كالبهائية أو القاديانية والعلوية ، وبعث الالحاد من جديد وراء ستار العلمانية والماركسية والداروينية ، مع نشر فكرة وحدة الاديان أو التقريب بينها وازالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة ، والباطن بصورته المتعددة المتضاربة .

وازاء كل هذه الخطط والمحاولات ، فلن يظهر زيف هذه العقائد والنحل الا بطريقة السلف أنفسهم ، مهما تغيرت الازمنة والاعصار ،لانها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية ، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة ، فهناك مسائل ثابتة لا تتغير ، كفطرة التوحيد ومخاطبة العقول البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزل ، مع دحض شبهات الملحدين والمشركين .

هذا فضلا عن ثبات الفضائل الاخلاقية ، وقواعد التحليل والتحريم فى المأكل والمشرب والملبس ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى الاسرة والمجتمع ، واقامة العلاقات الدولية مع سائر الامم وفقا لاصول الشرع ، ولقد أصبحت الحركة السلفية ، هى الحركة الكبرى التى جددت الدعوة الاسلامية ، ولولاها لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيا وفكريا الى أمد بعيد «٢» والان ، سنوجز شرح مدلول السلفية من وجهة النظر الغربية .

---

٢ ـ أنور الجندى = الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا ص ٣١ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥ م

السلفية وفق التصور الغربى

ان أردنا الوقوف على مدلول (مصطلح السلفية) الشائع فى مغزاه التاريخى والحضارى ، فان أمامنا التعريف الذى ارتضاه المؤرخ الانجليزى للشهير « أرنولد توينبى » وسندرك بعدها الى أى حد امتد مفهوم السلفية الينا فأصبح البعض منا يردده بنفس التعريف والتصورة · وسنناقش رأيه لنصل الى مفهوم السلفية فى تاريخنا الاسلامى ·

ويرى المؤرخ البريطانى أن السلفية تعنى :

أولا : ارتدادا من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة ال محاكاة أسلاف القبيلة · وبعبارة اخرى تعد السلفية سقوطا من الحركة الدينامكية للحضارة الى الحالة الاستاتية التى يشاهد عليها الانسان البدائى فى الوقت الحاضر·

ثانيا : محاولة من المحاولات تبذل عند حدوث توقف اضطرارى لحركة التغيير ، وينتج عن المحاولة رذائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى نجاحها ·

ثالثا : أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ (تثبيت) مجتمع منهار متحلل · وهذا التثبيت هو الغاية المألوفة لواضعى (نظم المدينة الفاضلة)·

ويستطرد ليشرح المجالات التى تعبر فيها السلفية عن نفسها ، فهى فى مجال السلوك تظهر فى :

أولا : فى شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة أعظم من تعبيرها عن نفسها فى شكل أساليب لا تتصل بالوجدان بسبب · ···

ثانيا : تعبر عن نفسها فى المجال اللغوى فى معان تتصل بمنهاج ونمط يتسمان بالسفسطة ·

ثالثا : وفى ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ملاحظة نزعة السلفية فى نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية .

فان الحركة الانجليزية الكاثوليكية تقوم مثلا على الاعتقاد بأن الاصلاح الدينى الذى تم خلال القرن السادس عشر ، وحتى فى صورته الانجليكية المعتدلة ، قد ذهب فى تطرفه مدى بعيدا ، ومن ثم تهدف الحركة الى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هجرت والغيت اربعمائة سنة الغاء نعزوه الى عدم التبصر (١) أ ٠

وخضوعا للمفاهيم الغربية الشائعة انساق البعض وراءها ظنا أنها مطابقة للتصورات المماثلة في المجتمعات الاسلامية ، فمالوا الى الغض من أصحاب الاتجاه السلفى في الاسلام ، ونفروا الناس منه وقاموا بحملة تشهير ظالمة ضده ٠

وقامت معركة حقيقية (بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وبين الذين عادوا من أوربا وقد فتنهم بريقها ، فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه) (٢)

ثم فشت العصبية لما هو وارد من هذه البلاد تحت دعوى التجديد ، وأراد أصحابها تغيير كل شىء في **الدين واللغة والادب ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد** ، بدعوى نبذ القديم والبالى والاخذ بالجديد والحالى

وفيما يتصل بالعقيدة والدين ، فقد ذهب أحد أصحاب فكرة التجديد الى وصف الدين الحى الحق بأنه ذلك المتحقق في الشعور ، **المتجدد المتطور** يتخذها وفقا للازمان ، وتبعا للطابع العنصرى المركب في هذه الامة ، ولهذا فكل دين في أصله رمز ، قابل لما لا نهاية له من أنواع التفسير التى يبلغ الفارق بين بعضها حد التناقض ٠ وكلما تعددت التفسيرات لهذا الرمز ، وبلغ التعدد مرتبة عالية من الافتراق الرفيع ، كان هذا من أوضح الشواهد على أن هذا الدين حى وخليق بالبقاء ٠

---

(١) توينبى = مختصر دراسة التاريخ ج ٣ ص ٢٦٠ وص ٣٨٥ وص ٣٩٨

(٢) د ٠ محمد حسين ٠٠ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٠٢ص ٢٣٢ مكتبة الاداب بالجماميز ـ القاهرة ط ١٣٨٨ ه‍ ١٩٦٨ م

وبناء على هذه النظرة للدين في صورته المتطورةالمتجددة ، وتفسيراته الرمزية المتناقضة ، تصبح النزعات الستية أو السلفية وما اليهامن حركات تحاول أن تأسر نفسها في ربقة الرمز بمعناه الظاهر الاولى ، تصبح عند صاحب هذا الرأى ، علل وأزمات نفسية في تاريخ الحياة الروحية لدين ما ، وعليه أن يبرأ منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثرى في مجال الروحية العليا ·· (١)

وقد كان الاسلام هدفا ـ وما زال ـ لحملات شديدة تختفى وراءهذه المصطلحات وأمثالها للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخير والشر والفضائل والرزائل ، فاخترعت بدلها ألفاظ تنقصها المدلولات والضوابط ، كالقديم والجديد والرجعية والثورية ، واليمين واليسار ، والثبات والتطور ، والظاهر والباطن ، والحقيقة والرمز أو التأويل وكلها تتأرجح متذبذبة ذات اليمين وذات الشمال كبندول الساعة لاتستقر على حال ·

وتجددت المعارك وليست أثوابها متعددة منذ حملات الغزوالاستعمارى في مطلع القرن الحالى ، مما دفع بأصحاب الاتجاه السلفى لمواجهتها وابطال مفعولها · ومن هؤلاء الامير شكيب أرسلان الذى علقعلى محاولات المتغربين بقوله :

قلما رأيت من هذه الفرقة الا الادعاء الفارغ والنزوع الى الثورة على ما يسمونه بالقديم ، وهم ينسون أن هناك مبادىء ثابتة وبديهات ليس فيها قديم وجديد ، وأن الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعملعلى ذلك ثورة ، وأن المقولات العشر مما لا تتناوله هذه الثورة ، وأن الثورة انما هى واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم · (٣)

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة في الاسلام ـ المقدمة صفحة (ى) ·

(٢) من كتاب مصطفى صادق الرافعى ·· تحت راية القرآن ص ٣٩ المكتبة التجارية ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م

وعلى ذلك فان وحدة الدين كما عرفه سلفنا وكما ترشد اليه أصوله نابع من وحدة عقيدية واتفاق الغالبية عليها . وعلى العكس ، فان الصور المتعددة لم تظهر الا عندما انقسمت الجماعة الاسلامية الاولى الى فرق واحزاب ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فتفتت كيان الامة وكسرت شوكتها .

ومنذ انشق الصف الاسلامى فى عصوره الاولى ، ظهرت الخوارج والشيعة والقدرية والمذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وكلها ذات تفسيرات تتفاوت فى انشقاقها عن عقيدة الاسلام ذات اليمين وذات الشمال .

ولم يبق العقيدة الاسلامية على اصالتها ونقاوتها ولمعانها الا الطائفة الظاهرة على الحق ، التى ظلت تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة بالطريقة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه . ويوضح لنا ابن تيمية مكانة الصحابة وسلامة منهجهم وتكامله بقوله :

(فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول صلى الله عليه وسلم علما وعملا ، يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالايات والادلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله ، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ، ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية ، وهى محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله) (١)

ولقد تتابع السلف جيلا بعد جيل أخذين بطريقتهم ، ووقف علماؤهم بصلابة ازاء كل محاولات التجزئة والبتر والتأويلات الكلامية والتخريجات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية ، فلم يهنوا ولم تفتر لهم همة .

وما على القارىء لكى يعرف هذه الحقيقة ، الا قراءة بعض صفحات

---

(١) ابن تيمية ـ النبوات ص١٥ . نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٨٦ هـ

التاريخ اذ يعثر على خيط طويل يمتد فيربط فى سلسلة متماسكة منذ الاوائل حتى عصرنا الحاضر ، وقف علماء السنة بالمرصاد ، مبينين الانحرافات عن الاصول الاسلامية ، وربما لا تسمح لنا هذه الدراسة بالتوسع فى بيان ذلك الا بالقدر الذى يحقق توضيح الفكرة التى نحن بصددها ، وهى أن الاسلام ظل محفوظا فى الاصلين العظيمين : الكتاب والسنة ، وأن تلقيه وتطبيقه بمنهج السلف هو الذى حفظه حتى الان ، وكل انحراف فى تقويض أركان المجتمع الاسلامى ومساندة اعلانه ومن هنا عارضوه نفاة القدر بسبب انكارهم لاصل من أصول الايمان المثبتة للعلم الالهى الازلى المطلق ، وأيضا حاربوا نزعة الجبرية التى ساهمت فى ركود الهمم واضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابى النشط ·

ووقف السلفيون ازاء تجزئة عقيدة الاسلام الى دوائر عقلية ـ لدى المتكلمين والفلاسفة ـ أو عاطفة وتفسيرات وجدانية ذوقية لدى الصوفية وما جهود العلماء الكبار منذ عصر الصحابة والتابعين أمثال : الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير · الى أمثال ابن حنبل وابن تيمية والدارمى والشافعى ومالك وابن خزيمة والشاطبى وابن قتيبة وابن القيم والشوكانى وابن الوزير اليمانى وغيرهم ··· ما جهود هؤلاء العلماء الا عمل من أعمال المحافظة على الاسلام فى مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وأنظمته وفقا لطريقة السلف ، فحال ذلك دون ادخال أية تحريفات كما حدث فى اليهودية والنصرانية ، بل استطاعوا فضح كل المحاولات التى بذلت من هذا القبيل ، واصبحت مؤلفاتهم معبرة عن الاصالة لاظهار المخالفين المبتدعين وتوعية المسلمين من خروجهم عن المنهج الاسلامى الصحيح ·

فقد وقف الفقهاء والمحدثون فى وجه الدولة العباسية فى عنفوان قوتها عندما رأوا ما يؤخذ على بعض خلفائها وولاتها ، فقد ضرب أبو حنيفة على القضاء ، وأوذى الامام مالك لنشره الحديث (ليس على مستكره طلاق) عندما أرغم المسلمون على حلف يمين الطلاق بمناسبة البيعة للمنصور · وصمد الامام احمد صمودا جبارا ازاء محاولات تفسير الاسلام تفسيرا عقليا كلاميا مخالفا لنصوصه ابان محنة خلق القرآن ·

وجاء ابن تيمية ليجدد فهم الاسلام على طريقة السلف فى وقت يظن المتصفح لتاريخ عصره أن عقول المسلمين قد توقفت وجمدت على آراء علماء الكلام والفلاسفة وشطحت مع فرق الصوفية ، وكأن الجميع قد نسوا أن القرآن الكريم مازال غضا طريا بين ايديهم ، وأن سنة الرسول صلى الله عليه وسلع تغنيهم عن الدروب التى سلكوها .

ثم رأينا فى العصر الحديث كيف قام الامام محمد بن عبد الوهاب للاطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد بعد أن ران عليها دنس الجاهلية مرة اخرى ، وتابعته معظم الحركات المعاصرة فى العقيدة ومسالك الجهاد حتى يمكن القول ان دعوة الامام تشكل الاثر الحاسم فيها جميعا ، لانها بدأت بالقاعدة التى انطلق منها ، اى عقيدة التوحيد .

السلفية والحضارة الاسلامية

اذا كانت الحضارة الاسلامية ما زالت قائمة كمجتمعات حية فى رأى توينبى ، فما الذى يمنع تحركها لقيادة العالم من جديد ؟

انه وفقا لنظريته عن عدم موت الحضارة بالمعنى العضوى ، وانما تختفى وقد يكون هذا الاختفاء لمدة قرون ثم تعود للظهور . كما يؤمن كبير مؤرخى العصر فى أعماقه بأن الحضارة الاغريقية هى السلف الحقيقى للحضارة الاوروبية الحديثة ، وهو يرىأن الحضارة الاغريقية قد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور في الحضارة الاوربية الحديثة . (١)

ولكن الحضارة الاسلامية ـ باعترافه ـ لم تمت عضويا ، بعكس الاغريقية ، ويرجع الفضل فى بقائها الى بقاء العقيدة .وظلدرو السلفيين باقيا فى احياء عقيدة التوحيد وفهم الاوائل للاسلام ، لان الاسلام ـ كما يذكر توينبى ـقد اعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادى في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . (٢)

واستمرت السلفية في المحافظة على التوحيد في جوهره النقى،فمنعت تردى العقيدة الدينية الى صورة من صور الوثنية ، لان أية عقيدة دينية في رأيه ـ تواجه خطر التردى في عبادة الاوثان ، وان العقيدة الدينية لتتعرض خاصة الى الانزلاق في هذا المنحدر المؤدى الى جهنم ، بعدما تكابد

الونا من الضربات القاصمة ، وخاصة اذا جاءتها من أناس ينتمون اليها . (٣)

أما الضربات القاصمة في تاريخنا ، فقد كان مصدرها أناس يدعون أنهم ينتمون الى الاسلام عامة أو التشيع خاصة ، بينما حملوا معاول الهدم ليغيروا معالمه من جذورها ، ولا يستطيع المسلم معرفة خدعهم وحيلهم الا بوقوفه على الطريقة السلفية في فهم الاسلام والعمل به .

ولهذا فقد هتك علماء السلف استارهم مع تعدد أجناسهم وكثرة فرقهم اذ تشمل (طائفة من المتفلسفة والقرامطة الباطنية والاسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله وأصحاب رسائل اخوان الصفا ، والعبيديين الذينكانوا بمصر من الحاكمية وأشباهم . وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم في الباطن ملاحدة) (١)

وقد سبق أن قلنا ان مفهوم السلفية كمنهج في الاسلام ، لايعنى جيلا او أجيالا مضت ، ولكن تتسع دائرته فتشمل الحاضر والمستقبل أيضا لانه لا يتعلق بالزمن والعصور لكن باتباع الطريقة الواحدة الثابتة حتى لو كان أصحابها افرادا قلائل ، فمن دواعى بقاء الحضارة الناجحة ، استطاعة القلة من الطلائع مجابهة التحديات . (٢)

هدف السلفية وضوابطها : ـ

ان الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كفيلة بتخريج طلائع أفذاذ لقيادة الحضارة الاسلامية من جديد كلما خفت ضوؤها ، وهم يشكلون باجتهاداتهم سلسلة متصلة من الجهود المبذولة والمحافظة على

---

(١) لمعى المطيعى .. أرنولد توينبى ص ٢٩ دا الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة العدد ١٤٨ ـ ١٩٦٧/٢/٢٢ م
(٢) مختصر دراسة التاريخ حـ ٣ ص ١٦٤
(٣) نفس المصدر ص ٢١١/٢١٠ ترجمة فؤاد محمد شبل ـ جامعة الدول العربية ص ط ١٩٦٤ م

طريقة الاتباع ـ لا التقليد ـ ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخلاصى التوحيد لله تعالى وحده ، والايمان بالوحى طريقا لمعرفة عالم الغيب ، مع استسلام الانسان في شئون حياته لما أمر به الله في شئون حياته بواسطة خاتم الرسل والانبياء وتحرير العقول من الوثنيات واصر الشرك لتتفرغ فيما يعود على الانسان بالنفع في ميادين المعارف والعلوم ووسيلتها النظر والتجربة مع ثبات الفضائل الاخلاقية والاداب الانسانية ٠

وهنا تظهر لنا ضوابط السلفية فى نصوص كثيرة سنختار منها ما يشرح معنى الصراط المستقيم ، لاننا نلاحظ فى التصور الاسلامى أن أصول وقواعد محددة وفق هذا الصراط المستقيم ، وهو المانع من التذبذب او الارتداد أو الدوران في حلقات مفرغة قد توحى بها أستكمال اخرى غير الخط المستقيم ،كالخطوط المتعرجة أو أشكال الدوائر والمنحنيات مثلا اذا جاز لنا التشبيه بالاشكال الهندسية للتوضيح والبيان ٠

قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتعرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » سورة الانعام اية ١٥٠

وفي شرح معنى هذه الاية ، نستدل بالحديث : عن جابر قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فخط خطا هكذا أمامه ، فقال (هذا سبيل الله) ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال (هذه سبل الشيطان) ثم وضع يده فى الخط الاوسط ثم تلا هذه الاية ٠ (١)

وفى حديث آخر ، سأل رجل ابن مسعود رضى الله عنه ، **ما الصراط المستقيم ؟ قال** : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ، ثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به الى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به الجنة ٠

---

(١) ابن تيمية : كتاب الصفدية حـ ١ ص ١/٢ تحقيق د٠ محمد رشاد سالم ط شركة مطابع حنيفة بالرياض ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

(٣) كولن ولسون ٠٠ سقوط الحضارة ص ١٥٠
ترجمة انيس زكى حسن ط دار العلم للملايين ـ بيروت ، نوفمبر سنة ١٩٥٩ م

ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . (٢)

وبعد أن عرفنا هذا الصراط ، فقد اصبح لزاما علينا أن نعرف السائرين على هداه وهذا ما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم قال (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، الا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلق من بعدهم خلوقا يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) رواه مسلم .

فاذا أضفنا اليه حديثا آخر أمر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين ازداد الامر وضوحا .

قال العرباض بن سارية صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد الينا ؟ فقال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثا الامور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة وضلالة) رواه أبو داود .

وابقاء على هذا العهد يستطيع أن نتحقق تارخيا – وفى العصر الحاضر أيضا من الدور الذى أداه السلف ، فيتاكد لدينا موضوعية المنهج وتعلقه بمعايير وضوابط لا بعصور وازمنة . فمن الثابت تاريخيا .

١ وقوف السلف في وجه الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والقدرية والجهنمية وغيرها كما رأينا .

٢ شجب الاتجاه العقلى المغالى كالمعتزلة والفلاسفة ، وحتى أصحاب

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٢ ص ١٩٠ ط دار الفكر .
(٢) نفس المصدر ص ١٩١ .

المواقف الوسط كالاشاعرة ، وهذا ماتعبر عنه مواقف الفقهاء وعلماء الحديث أمثال ابن حنبل والدارمى والشافعى ومالك ·

٣ وظهر أيضا كاوضح مايكون في مؤلفات ابن القيم وابن تيمية حيث أحاطا بعلوم وثقافة عصرهما ـ فى القرنين السابع والثامن الهجرى ـ ووقفا بثبات ضد كل الاتجاهات التى استفحل خطرها في دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع ·

٤ ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفى فى العصر الحديث وان بدت فى جهود متفوقة لعلماء فى شتى العالم الاسلامى لا تجمعهم وحدة الارض·

والامثلة على ذلك : اظهار التوحيد بواسطة الامام محمد بن عبد الوهاب وتبعه آخرون فى الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والمغرب والقارة الهندية ·

وكان دور السلفيين ظاهرا فى هذا الدور للمحافظة على نقاء التوحيد الاسلامى فى العقيدة والعبادة ، ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربى الصليبى ·

. وعندما ظهرت مشكلات جديدة بسبب ازدياد صلات الغزو الاستعمارى وفتح منافذ جديدة للتسلل منها عقيدة الاسلام ، كانت السلفية بارزة المعالم فى عدة مواقف نذكر منها :

١ ـ معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات العلمية المعاصرة ·

٢ ـ نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن الكريم وعدم الخضوع لتصوراتها التى أخذت فى الزحف على العالم الاسلامى وأحدثت ثغرات فى الجبهة الاسلامية مستهدفة النيل من أصالة العقيدة الاسلامية ووحدتها وشمولها ، متبعة فى ذلك شتى الاساليب كالفصل بين الدين والدولة أو العلمانية ، والنيل من السنة واحلال القوانين الوضعية بدل الشريعة الاسلامية · وكلها حيل جديدة منبثقة مما مر بحضارة الغرب وتاريخه وفلسفاته ، وما أصاب مجتمعاته من تغيرات اقتصادية وسياسية تخصه وحده ·

وما دام الامر كذلك ، فان مما يستوقفنا ملاحظة طرق واساليب أعداء الاسلام ، اذ تجتمع كلها ـ بالرغم من تعداد وسائلها ـ للنيل من الاسلام عامة ، ومن الطريقة السلفية خاصة ، **ثقافيا واجتماعيا وسياسيا** • **ففى المجال الثقافى والتعليمى** ، كان من دأب المستشرقين وما زال تعظيم الفرق المنشقة من الجماعة أمثال الخوارج والشيعة ، واثارة الافكار المخالفة للسلفية كالمعتزلة والجبرية والقدرية ، وغيرها من المذاهب الكلامية والافكار الفلسفية مع تعظيم أصحابها وترويج أفكارهم ، مع النيل من شيوخ السلف وعلمائهم • أضف الى ذلك فرص دراسة الفلسفات الغربية قديمها وحديثها بكافة مذاهبها وأصحابها •

وفى **المجال الاجتماعى** توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرقالصوفية وتجنيد نشر البدع باسم الاسلام ، أو تكوين ما يسمى فرق الانشاد الدينى بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الاضرحة ، والهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفى للدين ، واخفاء منهج السلف فى فهم الاسلام وتطبيقه •

وسياسيا ، دأب الاستعمار الغربى على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة كما أسلفنا ، مع ابتداع أساليب جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ومدها بالعون المادى ، وتمكين اتباعها من الوصول الى مراكز التأثير ، الى جانب اذاعة آرائها والترويج لها تحت ستار الاسلام ، مع الاعتماد أيضا على الفرق التى ما زالت تتوارث عقائدها الباطلة المنحرفة عن الاسلام منذ ظهورها فى المجتمعات الاسلامية ، كالباطنية الاسماعيلية والنصيرية والدروز •

واذا كانت خصوم السلفية ينفرون منها بدعوى منافاتها للتقدم ، فما هو التقدم ؟

أصبح لفظ (التقدم) هو الشائع الان وأخذت الغالبية تخضع للتفسير الذى يميل الى وصف كل ما هو حديث ومعاصر بالتقدم ، وامتدت هذه النزعة الى الاعمال الادبية والفنية وحتى الكتابات الصحفية اليومية ، وامتد نفوذ الفكرة ليشمل كل شيء ، فلم يميز بين التقدم فى دوائر العلوم

التجريبية وغيرها من ألوان الانشطة الانسانية ، وتعتمد على الفكرة الرائجة بالرغم من خطئها ـ كما سنثبت ـ اذ تصور المجتمعات البشرية وكأنها تتقدم تلقائيا كما تقدم بها الزمن ، فتقترب بمرور الاعوام والقرون من درجات الرقى والتقدم ·

ولبيان خطأ الفكرة بالرغم من ذيوعها وانتشارها ، فاننا سنناقشها وفقا للترتيب التالى : ـ

ـ ان الفكرة مرتبطة بالمراحل التاريخية التى مر بها الغرب ، اذ انتقل فى تطوره المادى من العصور القديمة الى الوسطى فالحديثة والمعاصرة، وفى ضوء هذا التقسيم ، واقتران كل مرحلة بظروفها ، أصبح الغربى عندما ينظر الى تاريخه ، يفزعه المدلول السلفى لان مضمونه التاريخى والحضارى يلقى فى قلبه الرعب · فالسلفية فى نظر الانسان هناك عموما تعوقه عن التقدم المادى فى الصناعة والزراعة وحقول العلوم والمعارف المختلفة اذ تفجرت على اثر الثورة الصناعية واستخدام المنهج التجريبى فى العلوم ، بدلا من المنهج الصورى اليونانى ، وهو من نتائج سلف الحضارة المعاصرة وكان منطقا عقيما لم يتقدم بالعلم خطوة واحدة ، كما تحرمه السلفية هناك من العلمانية التى فصلت بين الدين والدولة سياسيا واجتماعيا طبقا للشعار (دع ما لله لله ودع ما لقيصر لقيصر) فتحررت الشعوب بذلك من قيود رجال الكنيسة التى ضيقت الخناق على حركة التقدم السياسية والاجتماعية ·

وفى الميدان العلمى ، انطلق العلماء يبتدعون سعيا وراء الحقائق التى تقدمها التجارب والاكتشافات العلمية ، فيأتى العلم كل يوم بالجديد المذهل، بعد أن فك عن نفسه قيود تفسير رجال الكنيسة · ولان السلفية عنده كانت مضادة للفكر الفلسفى الذى اراد الدين المسيحى ·

والسلفية بعد كل ذلك بالمضمون الغربى تعيد الى الاذهان الصور المظلمة المقترنة بالظلم الاجتماعى والسيطرة السياسية فى عصور طغيان الملوك والامراء ورجال الاقطاع فى القرون الوسطى ·

ولكن نتوقف لنتساءل : ماذا نريد بقولنا : التقدم ؟ التقدم على ماذا؟ أو على من ؟ أو بالنسبة لماذا ؟ أو لمن يكون التأخر أو التقدم (١) ·

ويجيب على هذا السؤال أحد المؤرخين الذين فسروا الحضارة بالتغير وليس بالتقدم ، فان المجتمعات تتغير والتغير قد يكون تخلفا او تقدما من نموذج ومثل أعلى ذلك لان فى كيان الانسان مقومات ثابتة كالروح والغرائز والميول وحاجته الى المسكن والطعام والشراب والنوم والتناسل · ولكن التغير يصيب وسائله للوصول الى اشباع حاجته · قد يتقدم فى استخدام وسائل أرقى ، ولكنه يستخدمها فى الحروب وميادين القتال والسطو والسرقة ·

ولكن هل خفف الانسان من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء وفرض سيطرته على الضعفاء ؟ أم مازالت الحروب المستهدفة لاذلال الشعوب واستغلالها ونهب ثرواتها مستمرة فى القرن العشرين الميلادى ؟ الم تعجز الشعوب الصغيرة والضعيفة ـ التى كانت مستعمرة بالامس ـ أن تجد لها مكانا فى عال الاقوياء من الدول الكبرى ؟ وفى ضوء ذلك كله هل التقدم حقيقى أم مجرد وهم وخيال ؟

يجيبنا على هذا التساؤل هارى أطر بارنز بقوله :

(وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الاما أو الى الاحسن انما هو وهم ، لان غرائز الانسان واخلاقياته المركبة في طبعة باقية كما هى ، بل زادت حدة وضراوة ، ولا زال الوحش راقدا تحت جلد الانسان المتحضر ، بل ان لفظ « الوحش » فيه تجمل فى وصف خلفية الانسان المتحضر اليوم · فان الوحش يهاجم لياكل أو ليدافع عن نفسه ، وفيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان ، أما الانسان فيدبر لابادة الالوف أو الملايين وهو راقد فى فراش وثير فى غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادى · فأيهما الوحش ؟ ·

ان انسان اليوم مخلوق ضعيف العقل فى يده قنبلة يمكن أن يحطم بها نفسه وغيره ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسة اليوم (١)

---

(١) دكتور حسين مؤنس = الحضارة صفحة ١٤٩
من سلسلة يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب بالكويت
عدد يناير ١٩٧٨ م محرم / صفر ١٣٩٨ ه

وازاء كل ما نراه ماثلا للعيان ، فاننا نميل الى الاخذ بالتفسير التاريخى القائل بأن التاريخ فى سيره يأخذ اتجاها منحدرا (٣) مستندين فى ذلك الى أن العصر الذهبى للانسانية تحقق فى عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين ، وبعد القرون الثلاثة المفضلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما افترق المسلمون شيعا واحزابا مبتعدين عن تلقى الاسلام حسبما فهمه السلف وطبقوه عقيدة وشريعة وأخلاقا ·

ويتضح من حديث نبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر فى هذه الاحوال بالصبر على الشدائد والمحن متنبئا بأنها ستزداد على مر الاعصر :

عن الزبير بن عدى قال : اتينا أنس بن مالك رضى الله عنه فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج فقال : اصبروا فانه لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم · سمته من نبيكم صلى الله عليه وسلم · (رواه البخارى)

أما نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن فقد تعرضت لامتحان شديد في العصر الحديث وبعد توالى ظواهر تنبيء عن الازمات فى العالم الغربى المتقدم مثل (انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخدرات وضلال الشبان فى متاهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والازياء، واتساع نطاق الجريمة المنظمة والارهاب) ·

·· وما هى اذن الحقيقة الا خطوات مسرعة للتقدم نحو البربرية(١) وبالعكس ، اننا نرى أن المجتمع البدوى أكثر تقدما اذا قيس بمقياس التقدم الاخلاقى المعنوى برغم تضحيته بالافراد احيانا للمحافظة على كيانه العام من أى تحلل · وقد يوقفه هذا المسك فى مكانه ثابتا ويمنعه من اجتياز خطوات نحو ما تسميه المجتمعات الغربية بالتقدم ، ولكنه يحتفظ بالصلابة فى تكوينه وحيويته ، ولهذا فهو فى العادة أطول عمرا وأقل مرضا وتعاسة من الجماعة المتقدمة ، وأفراده فى العادة أوفر نصيبا من السعادة

---

(١) هادى أطر بارنز فى كتابه المسمى (النظم والمؤسسات الاجتماعية) نقلا عنكتاب الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٩/٣٦٠ ·

اذا كانت السعادة هى الاطمئنان على النفس والاهل والمال وراحة الضمير وخلو البال ٠ (٢) ٠

ان البدوى في حياته المستقرة الهادئة اسعد حالا من الغربى المتقدم علميا الذى يجرى وراء سراب لن يصل اليه ، ذلك لان عالم الغربى هوعالم صيرورة ابدية أى حدوث فانقضاء أنه يفتقر الى الهدوء والاستقرار (والزمن عدوه الذى يجب أن ينظر اليه دائما بمنظار الشك والريبة)(٣)

واذا جازت المقارنة بين هذين النوعين من المجتمعات فلا يظن ظان أننا ندعوا أو نحبذ طريقة الحياة البدوية أو البدائية ٠ فان سعادة البشر الحقة في رأينا تبلغ ذروتها في الحياة الدنيا اذا ضممنا الى وسائل التقدم العلمى تحقيق درجات الرقى الاخلاقى بمدلوله الاسلامى ٠

ثانيا : لايصلح الزمن مقياسا للتقدم : يقول السير جيمس :

(ان قوانين الطبيعة الاساسية ، بقدر مانعرفها في الوقت الحاضر ، لا تقول لنا لم يمر الزمن بلا انقطاع ؟ بل هى مستعدة لان تجيز احتمال بقائه ثابتا لايتحرك بقدرما تجيز احتمال رجوعه القهقرى ، **ذلك أن تقدم الزمن الى الامام بلا انقطاع** ، وهو جوهر الصلة بين العلة والمعلول ، انما هو شيء اضفناه من تجاربنا الخاصة الى قوانين الطبيعة المحققة ، ولسنا ندرى هل متأصل في طبيعة الزمن ، وان كانت نظرية النسبية تهم أن تسم الرأى القائل بتقدم الزمن تقدما مستمرا،وبوجودالصلة بين العلة والمعلول تهم أن تسم هذا الرأى بميسم الوهم والخداع) (١)

وبعد هذا التعريف المستفيض للزمن ، أيحق للانسان أن يتخذه

---

(٢) وظهر كتاب آخر لمؤلفه ف . فيل

(١) د حسين مؤنس ٠٠ الحضارة ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٦

(٣) محمد أسد ٠٠ الطريق الى الاسلام ص ١٣٩،ترجمة عفيف البعلبكى ط دار العلم للملايين ـ بيروت مارس سنة ١٩٧٦ م

(١) الكون الغامض ص ٣٣ ـ سير جيمس جينز ، ترجمة عبد الحميد مرسى ومراجعة د ٠ مصطفى مشرفة المطبعة الاميرية ببولاق ١٩٤٢ م

مقياسا للتقدم أو التأخر ؟ اننا نمضى معه رغما عنا ، فكيف نميز بين خطواتنا ونحن نلازمه ويلازمنا ؟ ثم انه لابد أن تدور عجلته ليتحول الحاضر أمس ، وقد قيل : كل غد صائر امسا

اننا فى عصر ثبت أن الزمن اضافى وأن فروق الحال والمستقبل فى الاشياء لا تكون طبقا لحقيقة تلك الاشياء ، بل طبقا لمشاهداتنا المحدودة(٣)

واذا اعتمدنا على القرأن الكريم لاستطلاع الايات التى تتناول الزمن ترى وردت الايات تارة للاشارة الى الحياة الدنيا مؤقتة وليست دائمة (ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) ٣٦ البقرة .

أو الزمن الكونى : (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع افلا تتذكرون ٤ يدير الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) ٥ سورة السجدة ·

ويذكر بعض الايات كعلامات للاهتداء : ,(وجعلنا الليل والنهار ايتين فمحونا آية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) ١٢ الاسراء · ولمعرفة مواقيت الصلاة والزكاة والصيام والحج ·

وقد ورد في الحديث : ··· وانما الاعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فاحسنوا السيرة الى الاخرة) المنذرى ·الترغيبوالترهيب ص٤ ص٩٦ وقال رواه الاصبهانى من رواية ثابت بن محمد الكونى العابد

وما أدق التشبيه في الحديث لحث الانسان على اخز نصيبه من العبادات والاعمال للترقى في الكمالات الانسانية وصولا الى جنة الخلد ·

وفي حديث يوم النحر ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ان

---

(٢) وحيد الدين خان ·· الاسلام والعصر الحديث ص ٣٧ ط المختار الاسلامى القاهرة ١٢٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ·) الحديث · وفي الحديث تحديد لشهور العام والتنصيص على أربعة حرم (متفق عليه) ·

أما الزمن بمدلوله التاريخى فقد أقامه القران على اساس ثابت سماه (سنة الله) تحذيرا وانذارا لبنى آدم ، فدمار الامم لـه تبريره الموضوعى ، والظلم مثلا سبب للانتقام الالهى · (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) هود ١٠٣ (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) هود ١١٧

وكذلك بالنسبة للافراد ، فقارون وفرعون وهامان وغيرهم (نماذج بشرية عرضها القران موضحا أعمالهم ومبينا نهاية ماحصدوه ، تنفيذا لنفس السنة أو القانون الالهى) (١) ومهما كانت الازمنة أو لاعصر التى تظهر فيها الامم او الافراد ، لان سنة الله لاتبدل ولا تتحول ·

ثالثا : التقدم في الاسلام :

اذا استبعدنا لفظ « التقدم » وما شابهه من الفاظ كالتطوير والثورية والتجديد وما اليها ، بسبب تزعزع مدلولاتها وذبذبة مفاهيمها ، جاز لنا استبدالها بما أقره الاسلام وحث عليه من اكتساب الفضائل ونبذ الرذائل لتمكين الانسان من تحقيق مقام الخلافة فى الارض · محددا الضوابط والمعايير التى لا تتغير أو تتبدل بتغيير الزمان والمكان ·

وتضمنت الايات القرآنية الاوامر والنواهى واحتوت على الوعد والوعيد متوجهة بالخطاب الى فطرة الانسان تحسن العدل والصدق والعلم والاحسان ، وتقبح اضدادها ·

قال تعالى (ان الله يامركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم

د· محمد كمال جعفر فى الدين المقارن ص ١٤ ط دا الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠ م

بين الناس أن تحكموا بالعدل) النساء ٥١ وقال عز وجل (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) النحل ٩٠

ويقتضى الوقوف على بعض معانى التقدم أن نستعرض آيات من الكتاب الكريم ونبذة من الاحاديث النبوية بادئين **بالاول** : ـ

(أ) فى لكتاب : ـ ها هو كتاب كتاب الله بين ايدينا ـ وكذلك السنة ـ كلاهما يوضحان مراتب أحسن النماذج الانسانية ، ويحثان على الارتقاء والسمو لاكتساب الفضائل التى بدونها لا يصبح الانسان انسانا : **قال عز وجل** (وسارعوا الى مغفرة من ربكم) وقال سبحانه وتعالى : (فاستبقوا الخيرات) ومدح قوما بقوله (يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) .

والنظر فى القرآن الحكم يدلنا ـ فيما يرى الراغب الاصفهانى ـ على درجات الارتقاء الاخلاقى ويحثنا على التسامى . **ففى طرق الارتقاء ودرجاته** يذكرها على الترتيب الاتى :

فاولها : أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاومتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين . **وثانيها** ان يقوم بالعبادات المفروضة عليه ، ويسارع فيها بقدر وسعه . وتلك درجة الصالحين . **وثالثها** أن يتحرى بعمله الحقيقى تعاطى الحسنات من غير تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه واماته شهواته المحرمة وتلك منزلة الشهداء . **ورابعهما** أن يكون منهذه الاحوال المتقدمة برضى ، ظاهر وباطنا بقضاء الله تعالى ، فلا يتزعزع تحت حكمة ولا يتسخط شيئا من أمره ، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه وتلك درجة الصديقين . وهذه المنازل الاربعة المرادة بقوله تعالى : (ومن يطع الله ورسوله فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) (١)

---

(١) الراغب الاصفهانى : الذريعة الى منزلة الشريعة ص ٦٨ تحقيق طه عبد الرؤف سعد ط مكتبة الكليات الازهرية بمصر ١٣٩٣هـ١٩٧٣م

أما عن **مهاوى الانحدار ودركاته** ، فقد وردت آيات كثيرة تحذر من انحدار الانسان وسقوطه الى مهاوى الرذائل : **فمنها** (ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين) ٠

ويوضح لنا الاصفهانى ترتيبا تنازليا لدركات الانحدار والارتداد :
فأولها الكسل عن تحرى الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ لقوله تعالى (فلماذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم) **وثانيها** الغباوة وهى ترك النظر ونقص العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه لقوله (كلا بل ران على **قلوبهم ما كانوا** يكسبون) **وثالثها** الوقاحة وهى أن يرتكب الباطل ويراه فى صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب ٠ (**ثم قست قلوبكم** من بعد ذلك فهى كالحجارة أو اشد قسوة) **ورابعا** الانهماك فى الباطل ، وهو أن يستحسنه فيحبه فيورثه ذلك ختما على قلبه واقفا لا عليه ، كما قال تعالى : (**ختم الله** على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وكما قال (**أم على قلوب** أقفالها) ٠

فحق الانسان أن يراعى نفسه فى الابتداء ولا يرخص فى ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر (المصدر السابق من ٦٤)

(ب) السنة

لو أحصينا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى يحث فيها على الارتقاء والتقدم كما كفتنا كتب ومجلدات ، ولكن يلاحظ المتتبع اياها ، أن الرسول يتجه فى ترغيبه وترهيبه الى الانسان على الحقيقة ـ أى نفسه وروحه وقلبه ـ لانها اساس غذاء القلب والروح وشحذ الارادة وتهذيب الاخلاق ، وتجعلها فى المرتبة الاولى قبل مظاهر الحضارة المادية من اقامة مصانع وانشاء مدن وشق طرق وبناء مدارس وجامعات ومستشفيات ٠

وربما خيل للكثيرين ـ من المسلمين أنفسهم ـ أن السنة تعنى فقط بالجانب التشريعى من الاسلام من تحليل وتحريم واباحة ، أو الارشاد الى أنواع العبادات وكيفية اقامتها وأوقاتها وشروطها ومراتبها ٠ ولكن الحقيقة أن هناك جانبا كبيرا فى السنة القولية والعملية متضمن ارشادات

وتوجيهات فى الحياة الانسانية دقيقها وجليها ، فى صورتها الفردية والاجتماعية · فارشادات بذلك الى منارات التقدم الحقيقى لكى يهتدى بها الانسان ·

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وسيظل ـ القدوة فيها كلها حتى أحبه اصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أكثر من حبهم لانفسهم· وسيبقى كذلك للمسلمين ما دامت الحياة ·

قال عروة بن مسعود يصف أحوال الصحابة بقومه : « أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، صلى الله عليه وسلم » (١)

وما أحوج البشرية عامة والمسلمين خاصة الى الاسترشاد بسنته فى دروب الحياة المتشعبة ، اذ لم يترك الدنيا الا بعد أن تحدث واصبح كل شىء ·

ففى حديث جامع :

عن معاذ قال : أخذ بيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم نمشى قليلا ثم قال : يا معاذ ، أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ، ووفاء العهد وأداء الامانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيـ ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، الامانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الامام ، والتفقه من القرآن ، وحب الاخرة والجزع من الحساب ، وقصر الامل ، وحسن العمل ، وانهاك أن تشتم مسلما ، أو تصدق كاذبا ، أو تعصى اماما عادلا ، وان تفسر فى الارض ·

---

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٠٦ ط السلفية بمصر ١٣٩٧ ﻫ ·

يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية . (٢)

والاحاديث النبوية فى الحث على مكارم الاخلاق ، والرقى الانسانى وتقدمه ، لا حد لها ولا حصر ، ولكن حسبى أن سقت مثالا بما يناسب هذا المقال فى غرضه وحجمه .

والله ولى التوفيق

مصطفى حلمى

---

(٢) المنذرى = ح ٤ ص ١٠٧ / ١٠٨ الترغيب والترهيب . وقال رواه البيهقى فى كتاب الزهد . ضبط احاديثه وغلق عليه مصطفى محمد عمارة ط الحلبى ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٨ م